القرآن في قلبي

سالم مولى أبي حذيفة

رضي الله عنه

الحياة بالقرآن لها طعم آخر..

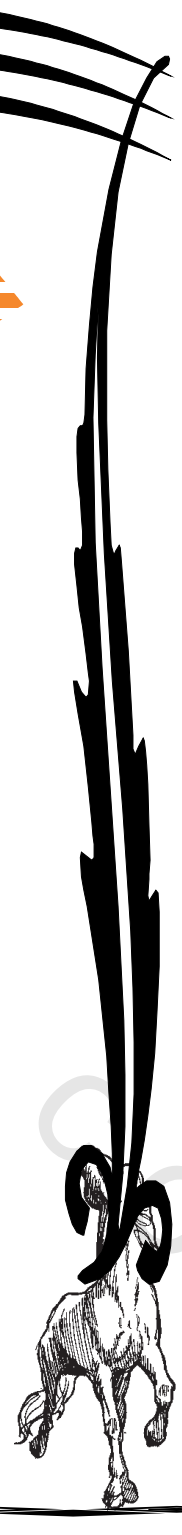

obeikandl.com

«أنت من الآن – أمام الله والناس جميعا- ابني يا سالم».

قالها أبو حذيفة بن عتبة بحنان بالغ وهو يربت على كتف عبده سالم، والذي ما إن كاد يسمع ما قاله أبو حذيفة حتى تهلل وجهه وسرى الفرح والسرور في عروقه، وهتف قائلا في دهشة:

- ماذا تقول؟ ابنك؟ أوقد أعتقتني ؟!

قالها أبو حذيفة بكل ما يمتلكه من عطف:

- نعم..إني أحببتك حبا كبيرا يا سالم، وأردتك لي ابنا لا عبدا.

كان عتق عبد في الجاهلية وفي بداية الإسلام يعد حلما صعب المنال..

كان مطلب الحرية للعبيد أمرا من قبيل الخيال لا ينبغي حتى التفكير فيه..

فإذ بأبي حذيفة يلقي لسالم بمفاجأة من العيار الثقيل..

ليس العتق فحسب، بل لقد أصبح ابنا لأحد أبناء سادة قريش.. أبو حذيفة بن عتبة..

لا شك أن «سالما » كان موفقا كثيرا في مشواره منذ بيعه في سوق العبيد بعد مجيئه من فارس، فلقد اشترته امرأة تدعى «ثبيتة بنت يعار »، تزوجت أبو حذيفة بعدها وأهدته له، فأعتقه وتبناه..

كانت نقلة اجتماعية رهيبة لسالم، فلقد تحول فجأة من عبد ضعيف ذليل ليس له أي حقوق، إلى ابن له كل الحقوق..

ولقد كان من قدر سالم أيضا، أن أباه أبو حذيفة كان من الذين سارعوا بالإسلام والإيمان بالرسول ﷺ في بدايات البعثة، حتى قبل أن يبدأ الرسول ﷺ في الاجتماع بالمسلمين في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

وكان طبيعيا بعدها أن ينضم سالم إلى أعداد المسلمين .

إذن لقد أصبح البيت الآن كله مسلما، الأب والابن والزوجة.

وأخذ أبو حذيفة وسالم يترددان على دار الأرقم بانتظام، وبدا منذ اللحظات الأولى شغف سالم بالقرآن، فكان سريع الحفظ للآيات قليل النسيان.

وتسير الحياة في منزل سالم هادئة لا ينغصها عليه إلا حالات التعذيب الوحشية التي يقوم بها المشركون تجاه أصحابه..

وهاجر سالم مع أبيه أبو حذيفة وزوجته مودعين مكة إلى حين يأذن الله بالرجوع..

ولظروف معينة.. اضطر أبو حذيفة إلى العودة مرة أخرى إلى مكة كحالة استثنائية..وعاد سالم إلى رحلته مع القرآن مرة أخرى يترقب الآيات ويحفظها ويسأل عما فاته طيلة وجوده بالحبشة..

لقد عقد سالم صفقة مع القرآن لا تنتهى، أضافت إلى خصاله النبيلة ما جعل حبه عند أبيه أبي حذيفة يتعاظم إلى الدرجة التي جعلته يختار ابنة أخته فاطمة بنت عتبة، لتكون زوجة له..

إلا أن علاقة الأبوة لم يكتب لها الاستمرار، فلقد نزل القرآن ليحرم التبني..

مما يعني أن أبوة أبو حذيفة لسالم قد انتهت كما انتهت أبوة الرسول ﷺ لزيد..

وبينما أصبح اسم زيد: زيد بن حارثة بدلا من زيد بن محمد، لم يكن يدري أبو حذيفة بم يسمي سالما، فهو لم يعرف له أبا..

وعندما بلغ ذلك الرسول ﷺ سماه سالم مولى أبي حذيفة.

وبمرور الوقت انتبه الرسول ﷺ إلى شغف سالم بالقرآن وحسن قراءته له وصوته الجميل.. وظل الرسول ﷺ يدخره إلى يوم فضله الله على الجميع في إمامة المسلمين..

اليوم الذي وصل فيه إلى قباء في طريق هجرته من مكة إلى المدينة.

وقف الرسول ﷺ ليختار إماما للمهاجرين يؤمهم للصلاة في مسجد قباء ..

فاختار من هوأندى صوتا وأفضل قراءة وحفظا للقرآن..سالم مولى أبي حذيفة.

لقد رفع القرآن «سالما » درجات عالية، من عبد كان لا قيمة له، إلى إمام يؤم أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب في الصلاة..

ليس هذا فحسب.. بل لقد وضعه الرسول ﷺ في مصاف أساتذة القرآن الذين يرجع لهم الصحابة ويتعلمون على أيديهم.

أوصى رسول الله ﷺ أصحابه يوما، فقال:

«خذوا القرآن من أربعة: عبد الله بن مسعود..وسالم مولى أبي حذيفة..وأبي بن كعب..ومعاذ ابن جبل..».

ولقد وقفت عائشة يوما تستمع رغما عنها إلى قراءته دون أن تعرفه من فرط حسن قراءته وجمال صوته.

عن عائشة قالت: استبطأني رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: ما حبسك ؟ قلت: إن في المسجد لأحسن من سمعت صوتا بالقرآن. فأخذ رداءه وخرج يسمعه، فإذا هو سالم مولى أبي حذيفة.. فقال له:

«الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك».

إلى هذا الحد وصل تقدير الرسول ﷺ لسالم بأن يحمد الله أنه جعل في أمته من هو مثله؟!

ولقد أثبت سالم في موقف آخر أنه محل لهذا التقدير..

فبعد فتح مكة، أرسل الرسول ﷺ بعض السرايا إلى بعض القبائل في الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام..وشدد عليهم في القول بأن المهمة دعوية لا حربية..

وكان قد أرسل خالد بن الوليد على رأس سرية من هذه السرايا..

إلا أنه حدثت مشكلة اضطر معها خالد أن يستخدم السيف ويريق الدماء..وهنا فزع سالم وعارضه معارضة شديدة لمخالفته أمر رسول الله ﷺ..

وعندما عادا إلى الرسول ﷺ.. احمر وجهه لما فعل خالد، ورفع يديه إلى السماء شاكيا وهو يقول: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد »

ثم نظر إلى السرية وإلى من معه فيها وهو في أوج غضبه قائلا:

«هل أنكر عليه أحد؟»

فقال بعضهم:

– نعم.. راجعه سالم يا رسول الله..

بعدها سكن الرسول ﷺ قليلا، لترتفع أسهم سالم عنده درجات ودرجات.

لقد كان الرسول ﷺ ينظر إلى سالم على أنه مرجعية قرآنية فذة، تعد ذخيرة للمسلمين لا شك، وعندما كان عدد حفظة القرآن من المسلمين كثيرا، وعندما كان الرسول ﷺ موجودا، لم يشعر أحد بمشكلة.. لكن بعد وفاة الرسول ﷺ، أيقن عمر بن الخطاب بأن هناك كارثة ستحدث إذا لم يسارع أبو بكر بجمع القرآن..

فلقد قتل سالم في موقعة اليمامة..

* * *

بعد تولى «أبي بكر الصديق » الخلافة، بدأ يقود حملة ضارية على المرتدين، كان أشرسها على الإطلاق تلك الثورة التي يقودها مسيلمة الكذاب.

ولقوة الخصم الشديدة والتى أثبتها في معارك سابقة، بعث أبو بكر بخالد بن الوليد على رأس جيش لينهي مشكلة كبيرة تهدد الاستقرار في المدينة.

وخرج في هذا الجيش سالم وأخوه «أبو حذيفة».

وحمل سالم معه كتاب الله في صدره إلى اليمامة، ومعه عشرات من الحفظة ذهبوا ليدافعوا بأرواحهم عن كتاب الله.

وبدأت معركة اليمامة..

وأثبت جيش مسيلمة قوته وشدته بصورة لا تقبل الشك، ووضع المسلمين في مأزق حقيقى..وبخبرة قائد عسكري نادر..أعاد خالد بن الوليد تقسيم الجيش بسرعة رفعت معنوياته وزادت من قوته النفسية.

ونظر سالم ليجد زيد بن الخطاب حامل راية المسلمين قد قتل.

وبكل حماس الدنيا أسرع سالم ليلتقط الراية من زيد، ويرفعها في وجوه أعداء الله.. ونظر إلى

أبي حذيفة نظرة تنطق بمعنى الشهادة في سبيل الله.

هنا أصاب المهاجرين من حوله القلق وصاحوا في وجهه:

- يا سالم.. نخشى أن نؤتى من قبلك.

وبكل إصرار وتحد ادخرهما سالم في حياته صاح قائلا:

- بئس حامل القرآن أنا.. لو هوجم المسلمون من قبلي.

وكان سالم نعم حامل القرآن..

فلقد حمل الراية وقاتل قتالا ضاريا، حتى اجتمع عليه مجموعة من المرتدين.. فقطعوا يمينه فأخذ الراية بيساره، فقطعوا يساره فانهالوا على يساره، فحضنها في صدره، فطعنوه في صدره، وأخذ يتلو آية أحبها من آيات القرآن الذي يحمله قائلا:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

وقبل أن ينال الشهادة سأل عن أخيه ورفيق عمره أبي حذيفة، فقال وهو في أنفاسه الأخيرة :

- ما فعل أبو حذيفة ؟ قالوا: قتل، قال: فما فعل فلان ؟ قالوا: قتل، قال:

فأضجعوني بينهما.

وابتسم ابتسامته الأخيرة..

وسكن تماما..

لتصعد روحه إلى بارئها، تسبقه آيات القرآن لتزين له درجات الجنة..

لقد عاش سالم حياته يحمل القرآن بين جنبيه.

وأحبه المسلمون حتى قالوا عنه: سالم من الصالحين..

واعتز به عمر بن الخطاب حتى قال:

- لو كان سالم حيا، لوليته الأمر من بعدي.

نم يا سالم واهدأ..

فسيرتقي بك القرآن في الجنة درجات ودرجات..

كما ارتقى بك في الدنيا درجات ودرجات.

* * *

دروس وتحليل

١- الرسول ﷺ كان يجيد وضع كل شخص في مكانه، فنجح بذلك في تأسيس دولة إسلامية قوية (الرسول ﷺ يختار «سالما » مولى أبي حذيفة إماما للصلاة في قباء ويعتبره أحد المراجع القرآنية للصحابة).

لا يمكن أن تقوم دولة أو مؤسسة ناجحة بدون إدارة حكيمة، ومن أساسيات الإدارة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وهوأمر يتطلب خبرة ودراية، ولكى يتم ذلك لابد أن يكون المناخ العام مناخا صحيا لا يفسده النفاق الرخيص، بل يتمتع بصحة الإخلاص، فتعلوالكفاءات وتشحذ الهمم و يرتفع البناء وتتحقق الأحلام.

والدولة أوالمؤسسة الفاشلة.. هى التى تضع الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب، وتعطي فرصة للمنافقين أن يصعدوا، فتنزوي الكفاءات ويتوارى المخلصون وينهار كل شيء.

إن القاعدة..أنك إذا أردت أن تدمر مؤسسة، فيكفيك أن تضع الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب.

ولقد كان الرسول ﷺ إداريا ناجحا، استطاع أن يوظف كل صحابي في مكانه حسب قدراته الشخصية، دون أي اعتبار للحسب أوالنسب أوالقرابة أوالنفوذ...الكفاءة فقط كانت هي المعيار للاختيار..فنجحوا.. وفشلنا.

٢- الإيجابية سلوك مطلوب لدى المسلم، حتى لا يستفحل الخطأ في المجتمع وينتشر(سالم يعارض خالد بن الوليد في عدم تنفيذ أمر الرسول ﷺ بعدم القتال).

المجتمع لابد أن يقوم بدوره في تصحيح الأخطاء ومطاردتها مهما تكاثرت القوانين، وعندما يبدأ المخطئ في ارتكاب الخطأ، يكون متوجسا ومتخوفا لرد فعل الناس من حوله، فإذا وجدهم منفعلين تراجع، وأدرك أن الخطأ لن يمر في مجتمع لا يقبل بالخطأ ويحاربه، أما إذا وجد الناس ينظرون متفرجين مستسلمين، وقد رفعوا شعارات الأنانية والسلبية، سيبدأ المخطئ في إكمال خطئه بشجاعة، ثم يفكر بعدها في تطوير الخطأ ليصبح أشد وأقسى، وهو يعلم أنه سيمر كسابقه، والنتيجة..أن أصبح الخطأ الذي كان يرتكب ليلا يرتكب الآن نهارا، وأصبح الخطأ الذي كان يرتكب أمام مجموعة معينة من الناس، يرتكب أمام الجميع دون حياء.

إن السلبية تقتل الأخلاق في المجتمع، وتشجع على انتشار الجريمة والفساد، وتدعوالى الانهيار.

٣- حامل القرآن لا ينبغى أن يكون شخصا منعزلا عن الواقع، ولا يكفى أن يكون حافظا للقرآن، بل عليه أن يتمتع بكل جوانب المسلم التي دعا إليها القرآن (سالم كان حافظا للقرآن وإيجابيا ومجاهدا في سبيل الله).

كان الرسول ﷺ قرآنا يمشي على الأرض، يعنى أنه كان يطبق في كلامه وتصرفاته كل ما جاء في القرآن من أوامر للمسلم، ويحجم عن أي تصرف نهى عنه القرآن...وكثير من الناس يجتهدون أن يحفظوا القرآن.. أوأن يبعثوا أبنائهم لمحفظين أو معاهد تعليم لتحفظهم القرآن، وهذا - لا شك- مطلوب وجميل ورائع، ولكن المشكلة فيه، أن يعتبر الآباء أن هذا هو الهدف الذي ليس بعده هدف، وأنه يكفي فخرا لهم، أن الابن أوالابنة، قد ختم أو ختمت القرآن.

ولكن أين قضية السلوك؟ أين قضية تطبيق القرآن ؟..

أنا لا أقلل من أهمية حفظ القرآن، بل هو ضرورة ملحة لربط العبد بخالقه، وإمداده بشحنات إيمانية مستمرة.. ولكني أرى أنه من الخطأ التوقف عن هذه المرحلة واعتبارها كافية لكي يكون المسلم مرضيا عنه..

إن العديد من الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب، كان يقرن حفظ القرآن بالعمل؛ لأنه كان يعتبر أن قضية فهم القرآن وكيفية تطبيقه في الواقع قضية خطيرة، ربما تكون أهم من حفظ القرآن نفسه.

إننا ندعوالى حفظ القرآن بالطبع، ولكننا نشدد أيضا على ضرورة فهم القرآن وتطبيقه في الحياة اليومية، فنتغير بالقرآن.. ونغير الدنيا بالقرآن..هذه هي رسالة القرآن الخالدة ومعجزته..

التغيير.

* * *

obeikandl.com